الباب الرابع

سوريا وفينيقيا وفلسطين

٢٥٠٠ ق . م – ٩٧٥ ق . م

تمهيد تاريخى :

تظهر أهمية البلاد السورية كمركز له دور فى تاريخ الفنون فى منطقة الشرق الأوسط فى فترة العصور التاريخية ، وقد ساعد على ذلك موقعها الجغرافى فى قلب المنطقة وامتداد أراضيها إلى حدود البلاد التى كانت مركزاً للحضارتين العظيمتين اللتين ظهرتا فى وادى النيل فى الجزء الغربى ،وفى بلاد النهرين فى الناحية الشرقية . وقد سببت الأحداث السياسية التى مرت بمنطقة الشرق الأوسط اتصال سوريا بصفة دائمة بهاتين الحضارتين مما سبب استمرار تعرضها للتأثيرات الحضارية المصرية من جهة ، والسومرية البابلية من جهة أخرى .

وبحكم وجودها فى تقاطع الطرق فى منطقة الشرق الأوسط ، امتزجت فيها الأجناس والقبائل المختلفة منذ أوائل العصور التاريخية حيث كانت الأراضى السورية خلال تاريخها الطويل معرضة باستمرار لهجرة القبائل الرحل المتجولة فى البادية طمعاً فى حياة الرخاء التى توفرها تلك الأراضى السورية .

ويعتبر « العموريون » أهم القبائل السامية التى نزحت من البادية فى حوالى سنة ٢٥٠٠ ق . م واستقروا فى السهول الشمالية لسوريا وأسسوا دولة فى منطقة الفرات الوسطى وجعلوا عاصمتها مدينة « مارى » الواقعة جنوب مصب نهر «الخابور» . وأخذ العموريون ينتشرون فى سوريا الوسطى ولبنان وجنوب فلسطين وأصبحت سوريا القديمة تقريباً سامية باستثناء بعض المناطق الشمالية التى كان الحوريون يسكنونها .

تزايد عدد السكان الساميين الذين يسكنون الجنوب بهجرة سكان البادية

المستمرة ونتج عن إحدى هذه الهجرات التى لا يعرف تاريخها تمامًا ظهور الكنعانيين الذين احتلوا السهل الساحلى لسوريا وكونوا المدن الساحلية وأطلق عليهم اليونان الذين تاجروا معهم فى حوالى سنة ١٢٠٠ق.م اسم « الفينيقين »[١]

وشملت منطقة نفوذ الكنعانيين فلسطين والجزء الساحلى لسوريا . وتكونت منهم جماعات تسكن المدن الساحلية على طول الشاطئ وأهمها «طرابلس» و« بيبلوس» – حاليًا (جبيل) – و«بيريتوس» –حاليًا« بيروت»– و« صيدا » و« صور » أما فى الجنوب فانتشرت أغلب المدن بالداخل وأشهرها « مجدو » و« شكم »و« أورشليم » ، ولم يتحد الكنعانيون تحت حكم واحد ، بل توزعوا فى تجمعات بهذه المدن المختلفة تحت حكم محلى :

اتجه الحوريون الذين كانوا مستقرين فى الجزء الشمالى من بلاد النهرين إلى شمال سوريا فى أواخر القرن الثامن عشر وكان هذا الجزء يسكنه العموريون من قبل ولم ينتظم الحوريون تحت سلطان حكومة مركزية بل كانوا يختلطون مع السكان« العموريين » و « الكنعانيين » و«الساميين» وكانت لهم أكثرية فى بعض المدن الشمالية مثل « ياما خاص » ، « ألالاك » ، « حلب » ، « كركوك » .

وفى القرنين الرابع عشر والثالث عشر خرجت من شبه الجزيرة جماعات أخرى من الشعوب السامية ،واستقروا على حدود البادية السورية ،ولما لاحت لهم الفرصة المناسبة تسللت منهم قبائل صوب الشمال إلى بلاد النهرين وتسربت مجموعات أخرى صوب الشرق واستقرت فى سوريا وسميت هذه القبائل « الأراميين » ، وبعد أن استقرت لهم الأمور اتجهوا إلى المناطق الأخرى التى كانت تسكنها القبائل المختلفة فى بلاد الشام . وأدى ضغط الأراميين المتواصل إلى طغيانهم التدريجى على المناطق التى يسكنها العموريون والحوريون والحيثيون فى وادى « العاصى » و«المنطقة الشمالية». وإلى تقهقر هذه الأجناس أو امتصاصها .

---

(١) أطلق الإغريق على سكان المنطقة الساحلية اسم فونكس« Phoenix » أى أحمر اللون ومن هنا عرف اسم فينيق . وذلك لمهارتهم فى صناعة الصبغة الأرجوانية التى يستخرجونها من أنواع خاصة من الحيوانات البحرية .

بينما تركوا للكنعانيين المدن الشمالية من الجزء الساحلى ، وتركوا للعبرانيين الجزء الجنوبى .

وقد كون الأراميون فى سنة ١٢٠٠ ق . م إمارات عديدة ذات حكم محلى أهمها وأقواها مدينة دمشق القديمة وكان لموقع المدينة المتوسط بين حضارة بلاد النهرين والحضارات الفينيقية والعبرانية أكبر الأثر فى جعلها مركزاً للقبائل التجارية التى تحمل البضائع من البحر المتوسط إلى الشرق وبالعكس . فاشتغلوا بالتجارة مما ساعد على ثرائهم وازدهار الحضارة فى مدنهم وظهور نفوذهم السياسى فى منطقة الشرق الأوسط . ولكن هذا النفوذ ضعف بنمو القوة الآشورية التى تمكنت فى سنة ٧٣٢ ق . م . من القضاء على الدولة الآرامية .

كان الموقع الجغرافى لسوريا الذى جعلها همزة الوصل بين الحضارتين العظيمتين اللتين ظهرتا فى مصر وسومر سبباً فى تأثرها بالتيارات الثقافية والفنية السائدة فى هذه الحضارات وكان الجزء المجاور لبلاد النهرين متأثراً بالحضارة والفنون السومرية ، بينما تأثر الجزء الغربى بالفنون المصرية . فكانت مدينة « مارى » التى أنشأها العموريون فى وقت معاصر لحكم الأسرة السومرية الأولى مركزاً مهماً للحضارة والفنون السومرية ، كما كانت اللغة المستعملة هى اللغة الأكادية . وتشير الآثار التى عثر عليها فى هذه المدينة التى قضى «حامورابى» على آخر ملوكها فى سنة ١٧٠٠ ق . م إلى قوة تأثير الطابع السومرى . لذلك فضلت دراستها ومقارنتها بالآثار السومرية عند الكلام عن الفن السومرى .

أما الفن الحورى فيصعب فصله عن الفن الحيثى للميزات المشتركة بين هذين الفنين . كما أن المدن «الآرامية» التى ذكر أن بها قصوراً فخمة محصنة ، لم تتم للأسف عمليات التنقيب فيها والكشف عنها كلها حتى يمكن معرفة طابعها ، وكل ما عثر عليه المنقبون هو بعض تماثيل للملوك الآراميين يتضح من دراستها طابع الفنين الحيثى والآشورى .

يبقى بعد ذلك الجزء الساحلى من المنطقة الذى عرف قديمًا ببلاد كنعان ثم سماه الإغريق فى الألف الثانى قبل الميلاد « فينيقيا » ويطلق عليه حاليًا لبنان .

كانت صلة مصر بسوريا وثيقة لاحتياج الملوك المصريين للأخشاب السورية التى استخدموها فى بناء المعابد والقصور وفى صناعة السفن والتوابيت والأثاث الفاخر ، وترجع صلة المصريين بالمدن الساحلية لسوريا إلى ما قبل قدوم الفينيقيين إلى لأراضى السورية فى أوائل الألف الثالث ن.م حيث عثر فى مدينة « بيبلوس Byblos » على أوان حجرية مغطاة بأغطية ذهبية منقوشة بأختام الملوك المصريين منذ العهد الطينى ومن ذلك العصر تظهر أيضًا آثار سورية يغلب عليها طابع الفن المصرى فى « تاناش » القريبة من « مجيدو » .

وبسبب ظهور صناعة المعادن فى «بيبلوس» منذ ذلك التاريخ المبكر يعتقد بعض العلماء أنه كانت هناك آثار معدنية فى تلك المنطقة تعاصر الآثار التى وجدت فى بلاد الأناضول فى مدينتى « الأكاهويوك » «وطروادة » وأن زلزالا دمر المنطقة وأزال حضارتها وآثارها ، بينما يفسر البعض الآخر سبب ندرة الآثار بأن المنطقة دمرت من كثرة غارات جيرانها عليها حيث كان المصريون والحيثيون يتصارعون على سوريا ولم ينج من ذلك إلا المدن الساحلية .

العمارة :

بالرغم من عدم العثور على آثار مدن فينيقية تذكر . يتضح من النقوش الموجودة على جدران القصور الآشورية التى تصور معاركهم مع الفينيقيين أنهم قد برعوا فى تشييد المدن المحصنة ذات الأبراج العالية التى يتضح فيها طابع فنون بلاد النهرين . كما تعلموا منهم طريقة بناء القباب والعقود حيث عثر فى « مجيدو » على عقد يحمل جداراً سميكًا . وقد اهتم الملوك والنبلاء بتشييد القصور واستخدموا الحجارة فى بنائها كما استخدموها فى مقابرهم (شكل ١٦٩) التى شيدوها تحت القصور الملكية فى مدينة «أغاريت » .

ويشبه الطابع المعمارى لهذه القصور طابع القصور الملكية الموجودة فى جزيرة كريت ، مما حمل العلماء على الظن بأن الأهالى الذين كانوا يسكنون المدن الساحلية قبل قدوم الفينيقيين قد ساهموا فى بنائها قبل أن يهاجروا إلى الجزر الإغريقية ، ومما يثبت مهارة الفينيقيين فى تشييد القصور الفخمة ما ذكر من استعانة الملك « سليمان » بعمال « حيرام » ملك « طيرة » فى تشييد قصره وزخرفته ، ويرجع تاريخ تلك القصة إلى القرن العاشر قبل الميلاد .

عبد الفينيقيون مظاهر الطبيعة : السماء وما يتبعها من ظاهرات كالمطر والريح والبرق والرعد ، وأطلقوا على المعبود الذى يمثل تلك المظاهر الطبيعية الإله « بعل » ورمزوا له بنصب من قطع الحجر المرتفعة . كما عبدوا الأرض التى تمنح الحياة والخصوبة ورمزوا لها بامرأة وأطلقوا عليها اسم « عشتار » ، وشيدوا لهذه الآلهة المعابد . وكان المعبد فى أول الأمر يقتصر على حجرة واحدة لها باب واحد ، ولكنهم طوروا بناءه فتعددت الحجرات ، وجعل المذبح فى وسط القاعة الكبرى حيث تقدم القرابين للآلهة .

وقد عثر على آثار لهذا النوع من المعابد فى « بيبلوس » ووجدت به قطع حجرية عالية تشبه المسلات (شكل ١٧٠) ، ويرجع تاريخ بنائه إلى سنة ١٩٠٠ ق.م كما عثر على معبد الإله « بعل » فى مدينة « أغاريت » وقد شيد فى القرن الرابع عشر ق.م. ولا تدل عمارة هذه المعابد على تقدم فى فن المعمار .

النحت :

بالرغم من صلة أهل « أغاريت » و« بيبلوس » بالمصريين ورؤيتهم للتماثيل المصرية الجميلة ، إلا أنهم لم يهتموا بعمل تماثيل حجرية واكتفوا بصنع تماثيل صغيرة معدنية للآلهة . حيث عثر فى معبد مدينة بيبلوس على تماثيل صغيرة برونزية وضعت فى أوان مدفونة تحت أرضية المعبد يرجع تاريخ صنعها إلى سنة ١٩٠٠ ق . م . ويمثل أحد هذه التماثيل الإله « بعل » واقفاً فى وضع يبدو عليه الحركة (شكل ١٧١) وترتفع إحدى يديه إلى الأمام ومن الجائز أنه

(شكل ١٦٩) مقبرة ملكية مشيدة بالحجارة عثر عليها فى مدينة أوغاريت ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر ق . م

(شكل ١٧٠) معبد مدينة بيبلوس « جبيل » وتظهر به قطع من الحجارة الضخمة . الألف الثانى ق . م

(شكل ١٧١) تمثال الإله بعل من البرنز المغطى بطبقة ذهبية . ويرجع تاريخه إلى ١٩٠٠ ق . م « متحف بيروت »

كان يمسك رمحًا . ولا يستر جسده المغطى بطبقة ذهبية زى خاص . وتبدو الرأس صغيرة بالنسبة للجسم لكن الفنان اعتنى بإظهار تقاطيع الوجه بدقة . وقد اهتم بدراسة الجسم من الناحية الأمامية فقط . ومع أن صناعة هذا التمثال كانت بيد فينيقية إلا أنه قد تأثر بفنون البلاد الأخرى ، فغطاء الرأس المدبب منقول عن غطاء رأس الآلهة الحورية . والوضع الواقف والنسب وأسلوب نحت الجسم مستمد من الفن المصرى

ويقل هذا التأثير المصرى فى الجزء الشمالى من البلاد الفينيقية البعيده عن مصر ويتضح هذا فى تمثالين صغيرين لرجل وامرأة من الفضة (شكل ١٧٢) عثر عليهما فى مدينـــة « أغاريت » فى مكان قريب من معبد الإله « بعل » ويرجع تاريخ صنعهما إلى الفترة ما بين سنة ٢٠٠٠ ق . م وسنة ١٨٠٠ ق . م ، ويلاحظ أن تمثال الأنثى أصغر حجمًا من تمثال الرجل وربما كانا يمثلان الإله « بعل » وزوجته « عشتار » . كما يغطى الجزء الأسفل لجسم الرجل زى يتكون من رقائق من الذهب . وتدل صناعة هذين التمثالين على فن بدائى لا دراية فيه للفنان بتكوين الجسم البشرى . حيث يظهر تمثال الإله بجسد طويل رفيع ذى أكتاف عريضة كما تتميز رأسا التمثالين بعدم استدارتهما وتسطيحهما من الخلف . ولقد عثر على آثار مماثلة لهذا النوع من التماثيل فى فلسطين فى « غزة » « ومجيدو » و « أريحا » مما يدل على انتشار القبائل الأولى فى منطقة كبيرة قبل هجرتهم إلى الجزر الإغريقية .

وأهمية آثار هذه الفترة تبرز فى ظهور المصنوعات البرونزية حيث عثر على دبوس من البرونز ، وأساور من الذهب والفضة والبرونز وأقراط وخلاخيل من الفضة من صنع القبائل التى سكنت أغاريت حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . كما عثر فى مدينة « أغاريت » على تمثال من البرنز للإله بعل واقفاً (شكل ١٧٣) يرجع تاريخ صنعه إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وبدراسة هذا التمثال الذى يختلف كلية عن التمثالين السابقين يتأكد وجود الحوريين فى المنطقة . ويتضح ذلك من غطاء الرأس المخروطى وأسلوب نحت الجسم المسطح . ويتضح من الأمثلة السابقة أن الفينيقيين كان لهم ميل كبير للصناعات المعدنية .

(شكل ١٧٢) تمثالان من الفضة يعتقد أنهما يمثلان الإله بعل وزوجته « عشتار » ويغطى جسد الرجل زى من الذهب — القرن ١٩ ق. م ارتفاع تمثال الرجل ٢٨ سم — « متحف دمشق »

(شكل ١٧٣) تمثل الإله بعل واقف مصنوع من البرنز عثر عليه فى مدينة «أوغاريت» ويتشابه وضعه الواقف مع تمثال بيبلوس . تاريخه حوالى ١٤٠٠ ق.م «متحف حلب»

(شكل ١٧٤) لوحة حجرية بها نقش يصور الإله بعل واقفاً على أسد عثر عليها فى «مراتوس» القرن التاسع ق . م

(شكل ١٧٥) لوحة حجرية عثر عليها فى تل «بارسب» ويظهر فيها الإله «تشب» واقفاً على حيوانه الخاص . أوائل الألف الأول ق . م . — « متحف حلب »

النقوش البارزة :

اقتصر فن النحت البارز على بعض اللوحات الحجرية المنقوشة وبدراستها يتضح أن الفينيقيين قد أتقنوا هذا النوع من الفنون . ومثال ذلك اللوحة الحجرية التى عثر عليها خارج حدود الدولة فى مدينة « ماراتوس » وبسطحها نقوش تمثل الإله « بعل » (شكل ١٧٤) . وبدراستها تتضح براعة المثال فى إبراز معالم زى الإله. ويتبين من هذه اللوحة الجمع بين التأثيرين المصرى فى وقفة الإله والحيثى فى وقفته على الحيوان . ويمكن مشاهدة هذه الوحدة مرة أخرى فى لوحة حجرية عثر عليها فى شمال سوريا فى تل بارسب (شكل ١٧٥) .

ومن أحسن الأمثلة التى تشهد برقى الأسلوب الفنى للنقوش البارزة . تابوت الملك «حيرام» (شكل ١٧٦) الذى عثر عليه فى مدينة« بيبلوس » Byblos ؛ ويرجع تاريخه إلى عام ٩٧٥ ق . م وتسجل النقوش فى إفريز على الجدران فنرى على أحد السطحين صفًا من المتعبدين يتقدمون ناحية الملك الموجود فى الجهة المقابلة جالسًا على عرش قوائمه على هيئة أبى الهول المجنح . ويتقدم هذا الصف من الخدم والمتعبدين نحو منضدة فوقها طعام ، والجزء الأعلى من هذا الإفريز مزخرف بوحدات من نبات اللوتس . كما يوجد فى أسفل التابوت نقش لأربعة أسود تبرز رءوسها من السطح الجانبى للتابوت ، ومع أن الأشخاص المنقوشين فى الإطار يرتدون الزى الفينيقى إلا أن الأسلوب الفنى يغلب عليه الطابع المصرى . كما تذكرنا رءوس الأسود البارزة من سطح اللوحة الحجرية بالطابع الحيثى .

الفنون التطبيقية :

ظهرت أهمية مدينة « بيبلوس » كمركز لصناعة المعادن فى حوالى سنة ١٩٠٠ ق . م ويبدو فى آثارها استخدام المعادن بكثرة فى صناعة الأسلحة على اختلاف أنواعها فى معبد مدينة « بيبلوس » عثر على خنجر ذهبى (شكل ١٧٧) منقوش

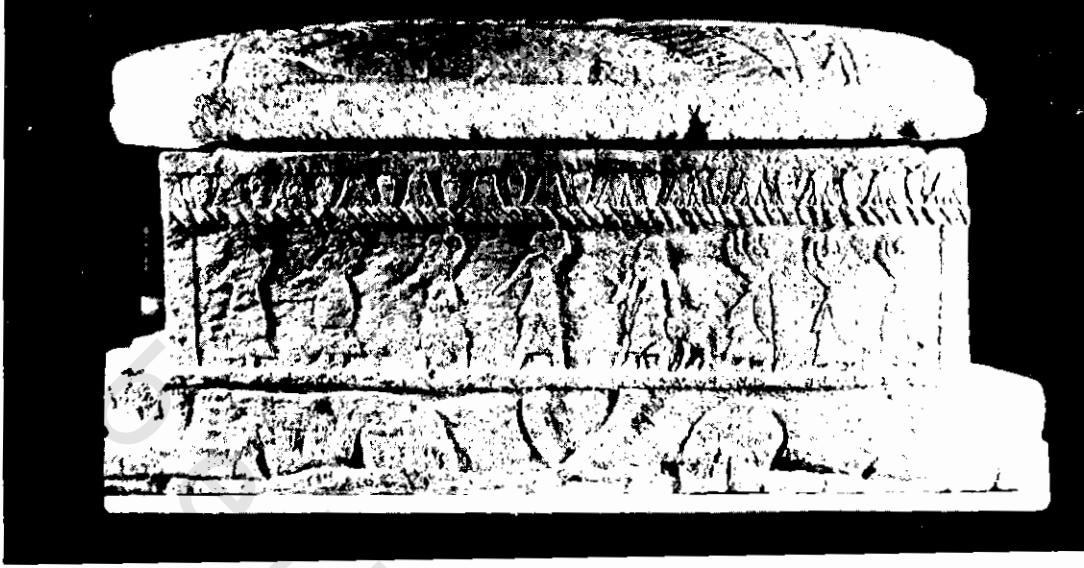

١٧٦

(شكل ١٧٦) تابوت الملك « حيرام » ملك بيبلوس ، مصنوع من الحجر ويرجع تاريخه إلى القرن العاشر ق . م – «المتحف الأهلى ببيروت»

١٧٧

(شكل ١٧٧) خنجر من الذهب وبه نقوش مستمدة من وحدات حورية ومصرية وسومرية القرن ١٨ ق . م . – « متحف بيروت »

(شكل ١٧٨) بلطة ذهبية وتظهر بها مهارة الفينيقيين – « المتحف الأهلى ببيروت »

(شكل ١٧٩) طبق من الفضة مزخرف بنقوش مستمدة من وحدات مصرية وآسيوية من مدينة « إيدليون » بجزيرة قبرص ،

١٧٩

١١٨

بمجموعة من الوحدات الحورية والمصرية والسومرية منسقة بأسلوب « فينيقى » ويدل النقش الدقيق فوق السطح الضيق على مقدرة فنية وصناعة ممتازة . وبالرغم من ميل الفنان الفينيقى إلى الوحدات الأجنبية إلا أننا نشاهد أنه تمكن فى بعض الحالات من صناعة أسلحة ذات نماذج خاصة به ، مثال ذلك البلطة الذهبية الموجودة بالمتحف الأهلى ببيروت (شكل ١٧٨)

ولقد استخدم الذهب والفضة على نطاق واسع فى الصناعات الفينيقية ، فصنعوا منها أنواعًا فاخرة من أوانى الطعام لتصديرها إلى البلاد المجاورة حيث عثر على كثير من هذه المصنوعات خارج حدود الدولة . فى قصور المصريين والآشوريين وفى قبرص وبلاد اليونان ، لذلك كان طابع الزخارف المنقوشة على هذه المصنوعات المعدنية خليطًا من العناصر المصرية والحورية والآشورية ، ويغلب على أكثرها الطابع المصرى ، وأحسن مثال لذلك طبق فضى عثر عليه فى قبرص تظهر فيه الوحدات المصرية والآشورية (شكل ١٧٩) .

ولأن الفينيقيين تجار بالفطرة نجد أنهم لم يتأثروا بالفن للفن ذاته ، بل وجهوا عنايتهم لإتقان صناعة يتمكنون من تصديرها إلى البلاد المجاورة . وهذا كان متوفراً فى صناعة المشغولات العاجية التى اشتهرت بها « أغاريت » فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، كما عثر على مصنوعات عاجية كثيرة بمدينة « مجيدو » يرجع تاريخ صنعها إلى هذه الفترة . ومن أحسن التحف العاجية التى تشهد بمقدرة الفينيقى فى هذه الناحية القطعة التى عثر عليها فى مدينة « البيضاء » — ميناء مدينة « أغاريت » — . وبها نقش لإلهة يقف بجانبها جديان من الماعز (شكل ١٨٠) ويرجع تاريخ صنعها إلى القرن الثانى عشر .

وتدل مجموعة الآثار العاجية التى عثر عليها فى خارج حدود المدن الفينيقية فى « سماريا » و « أرسلان تاش » وفى المدن الآشورية والتى يرجع تاريخها إلى القرن التاسع قبل الميلاد على براعة الفينيقيين فى اقتباس أحسن الطرز من البلاد المجاورة لنقشها على العاج . ويظن بعض علماء الآثار أن مجموعة هذه الأعمال العاجية التى ظهرت خارج البلاد يمكن نسبة صناعة جزء منها إلى

شكل ١٨٠) قطعة عاجية
نقش لإلهة تتوسط زوجاً من
ى الماعز . كانت غطاء
ة . عثر عليها فى مدينة
ساء

١٨٠

(شكل ١٨١) قطعة عاجية
بها نقش يصور الإلهة المصرية
إيزيس تقف بجوار شجرة الحياة
القرن الثامن ق . م

(شكل١٨٢) تمثال من العاج
على شكل امرأة تحمل بين يديها
شيئاً ما

١٨٢

السوريين الآراميين الذين لم يتأثروا بالوحدات الأجنبية . فنسبوا إلى الفينيقيين الآثار التى تظهر فيها وحدات مصرية ، أو وحدات أسيوية مع وحدات مصرية (شكل ١٨١) . وإلى السوريين القطع الحالية من التأثير المصرى كالعلب والأمشاط والتماثيل العاجية (شكل ١٨٢) .

وقد استمر ظهور الوحدات المصرية فى الفن الفينيقى حتى القرن العاشر قبل الميلاد ، فنجدهم قد استخدموا وحدات أزهار اللوتس والبردى وقرص الشمس المجنح والآلهة المصرية . . . إلخ ، ثم ابتدأ ظهور العناصر الآشورية جنبًا إلى جنب مع وحدات الفن المصرى بعد أن ظهرت قوة الدولة الآشورية .

وبالرغم من افتقار الفينيقيين إلى طابع خاص بهم يميزهم فى أعمالهم الفنية ، إلا أننا لا ننكر فضلهم على تاريخ الفن ، حيث كانت بلادهم منذ القرن الرابع عشر سوقًا عالمية للمصنوعات المصرية والحورية والحيثية والإغريقية ، ونقلوا وحدات كثيرة من بعض هذه البلاد إلى البلاد الأخرى مما نتج عنه ربط بين فنون الشرق الأوسط القديم . كما نقل الفينيقيون فنون الشرق الأوسط إلى بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط . ويتجلى أكبر فضل لهم على الحضارة الغربية فى حروف الكتابة الفينيقية التى اقتبس منها الإغريق والرومان حروفهم الهجائية . كما أخذ عرب الشمال حروفهم الأبجدية من الآراميين